[٣١٤ – عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: يا رسول الله، قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: (لا). قلت: فالشطر يا رسول الله؟ قال: (لا). قلت: فالثلث؟ قال: (الثلث، والثلث كثير! إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك). قال: فقلت: يا رسول الله، أُخلف بعد أصحابي؟ قال: (إنك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام، و يضر بك آخرون. اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم. لكن البائس سعد بن خولة). يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة].

ذكر الإمام الحافظ – رحمه الله – هذا الحديث الشريف حديث سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه وأرضاه –، ويعتبر هذا الحديث من أعظم الأحاديث المتعلقة بالوصية، وما من عالم ولا إمام من أئمة الحديث ورد له سند بهذه الرواية إلا وذكر هذا الحديث، وما من فقيه من الفقهاء إلا ونبه على جملة من مسائله وأحكامه، فهو حديث عظيم اشتمل على جملة من الأحكام والمسائل. يقول – رحمه الله –: **[عن سعد بن أبي وقاص]** هو الصحابي الجليل أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص "مالك بن أهيب"، وقيل: ابن أهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب بن مرة القرشي الزهري أبو إسحاق، كان – رضي الله عنه وأرضاه – أحد السابقين إلى الإسلام، كان – رضي الله عنه وأرضاه – ثلث الإسلام سبعة أيام، ففي الصحيح عنه – رضي الله عنه وأرضاه – أنه قال: "لقد أسلمت وبقيت سبعة أيام وأنا ثلث الإسلام" فكان ثالث أصحاب رسول الله ﷺ إسلاماً، سعد بن أبي وقاص الذي كان من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ علماً وفضلاً ونبلاً، من الذين كُتبت لهم السعادة في بطون أمهاتهم، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه بشره بالجنة، وكان – رضي

الله عنه وأرضاه – أحد الذين توفوا ورسول الله ﷺ عنهم راضٍ، كان – رضي الله عنه وأرضاه – أحد الذين شهدوا بدراً فنادى عليهم منادي الله: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" كان – رضي الله عنه وأرضاه – أحد الذين رموا بين يدي رسول الله ﷺ، ففي غزوة أحد حمل النبي ﷺ كنانته وقال له: (ارم فداك أبي وأمي) فما قالها لغير سعد – رضي الله عنه وأرضاه –، وكان – رضي الله عنه وأرضاه – أحد الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان فزكاهم الله من فوق سبع سماوات بالعفو والمحبة والرضوان، قال ﷺ: (لن يلج النار أحد بايع تحت الشجرة) سعد بن أبي وقاص أحد أخوال رسول الله ﷺ الذين اعتز بهم وافتخر، ففي الحديث الصحيح: أنه أتى إلى رسول الله ﷺ يوماً من الأيام، فلما أقبل عليه قال – عليه الصلاة والسلام –: (هذا خالي، فليريني أي امرئ منكم خاله). كان – رضي الله عنه وأرضاه – من الذين حفظوا وصية رسول الله ﷺ فتوفي عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فلما قُبض – عليه الصلاة والسلام – حمل لواء الجهاد في سبيل الله، فجاهد واجتهد وجد وصبر وصابر واصطبر، فرفع راية الإسلام وشهد المشاهد والفتوح وفتح الله على يديه للإسلام والمسلمين فتوحاً عظيمة، وهو الذي دخل إيوان كسرى – رضي الله عنه وأرضاه – في يوم أعز الله فيه جنده ونصر فيه عباده وكبت فيه أعداءه. عاش رضي الله عنه حميداً ومات قرير العين سعيداً، كان مجاب الدعوة قال له النبي ﷺ: (اللهم سدد رميته وأجب دعوته) ولذلك ما تقصّده أحد بالسوء فدعا عليه إلا كبته الله عز وجل، مع هذا كله لما انتهت الفتوحات ولاّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة، فكان أول من كوّف الكوفة وكان أميراً لها لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه –، ومازالوا يشتكون سعداً مع علو مكانه ورفعة شانه! حتى اشتكوه إلى عمر ووشوا به إلى أمير المؤمنين عمر، وزوروا له التهم ولفقوا الأقاويل حتى دعاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المدينة، وكانت له حادثة عجيبة فإنهم قالوا: إن سعداً رضي الله عنه جعل بينه وبين الناس باباً؛ حتى لا يدخل عليه أحد، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه محمد بن مسلمة أن يسافر إلى الكوفة، فإذا وجد الباب أن يحرقه ثم يأتي بسعد، فمضى محمد – رضي الله عنه وأرضاه – فوجد الباب فأحرقه، ثم أمر سعداً أن يتوجه معه إلى عمر بن الخطاب بالمدينة، فلما أتى إلى المدينة سأله عمر رضي الله عنه ما هذا الباب الذي وضعه، فقال: "يا أمير

المؤمنين، إنه كان الخصوم يجلسون بين يدي، فكنت إذا أردت أن أسمع أقوالهم وحججهم شوش عليّ السوقة وصياح الناس في السوق، فجعلت الباب بيني وبينهم؛ حتى لا يشوش علي في الخصوم" فكان الظن به ﷺ حميداً، فلما جاء خصومه من أهل الكوفة قال: ما تقولون في سعد؟ فقام الشقي وقال: أما وقد سألتنا عن سعد، فإنه لا يقسم بالسوية ولا يمشي في الرعية ولا يحسن أن يصلي بنا! – والعياذ بالله –، فانظر كيف يبتلي الله أولياءه، وانظر إلى هذه الحكمة العظيمة من الله ﷻ: أنه ما من عبد صالح يُرفع شأنه في الإسلام إلا ابتلاه الله بكلام الناس وبأذية الناس، فهذا الصحابي المبشر بالجنة، هذا الصحابي الذي فدّاه رسول الله ﷺ بأبيه وأمه، هذا الصحابي الذي كان ثلث الإسلام مع ذلك يقولون: ما يحسن أن يصلي بنا! فقال سعد ﷺ: "اللهم إن كنت تعلم أنه كاذب: فأطل عمره، وأعمِ بصره، وأدم فقره، وعرِّضه للفتن" فاستجيبت دعوة سعد على ذلك الشقي فعاش فوق مئة سنة حتى سقط حاجباه، وأصبح يتغزل النساء فتقول له المرأة: ألا تتقي الله وأنت شيخ كبير! فيقول: أصابتني دعوة الرجل الصالح. وهذه سنة الله في أوليائه: أنه لا يتقصدهم أحد إلا قطع الله دابره، وكانت له العاقبة السيئة ما لم يتب فيتوب الله عليه. فالشاهد: أنه ﷺ أوذي في ذات الله حتى ابتلي بجاره، فكان في آخر عمره اعتزل الفتن، حتى إنه لما وقع ما وقع لعثمان في المدينة كان أحد أبنائه – رحمهم الله – يحاول معه ويدعوه أن يدعو لنفسه الناس؛ لأنه كان أحد العشرة الذين بُشروا بالجنة، وأحد الذين رشحهم عمر ﷺ للخلافة، فلما حاول معه امتنع سعد ﷺ وعفَّ واستغنى بالله ﷻ واتقى الفتن واعتزل الناس ﷺ، حتى قالوا له: كيف تعتزل وأنت أنت، أنت صاحب رسول الله ﷺ؟! قال: "أعطوني سيفاً له عينان وله لسان يفرق بين الحق والباطل حتى أدخل فيها" أي: في الفتن. فمازال معتزلاً حتى وافته منيته وأوذي ﷺ حتى بجاره، فاشتكته امرأة إلى مروان بن الحكم – كما في الصحيح – وقالت لمروان: إنه قد اغتصب أرضاً لها، فلما دعي هذا الصحابي الجليل إلى الخصومة ودخل في مسجد النبي ﷺ بين يدي مروان وادعت المرأة عليه أنه اغتصب أرضها، قال: "كيف أغتصب أرضها من بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من اغتصب قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أراضين)؟! اللهم إن كنت تعلم أنها كاذبة فخذ بصرها، واجعله قبراً لها".

فأُخذت الأرض للمرأة، ثم إنه – والعياذ بالله – كُف بصرها، فقامت في الليل تطلب حاجة من حوائجها فسقطت في البئر، فاندقت عنقها وماتت بشر ميتة – والعياذ بالله –. هذه سيرة أصحاب رسول الله ﷺ مؤمنين مجاهدين ممتحنين مبتلين في ذات الله – جل وعلا –، فما زادهم البلاء إلا صبراً، وما زادهم العناء إلا ثباتاً في الحق وقوة وشكيمة، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل أعالي الفردوس مسكنهم ومثواهم. حانت منيته، وكان ذلك في سنة خمسين من هجرة رسول الله ﷺ حيث أوذن بالرحيل من هذه الدنيا، فانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى مع السعداء والأتقياء الصلحاء ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ وحُمل على أعناق الرجال إلى مسجد النبي ﷺ فصلي عليه ودفن ببقيع الغرقد، نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجمعنا به في جنات النعيم؛ إنه ولي الفضل والإحسان والبر والتكريم.

يقول – رضي الله عنه وأرضاه –: **[جاءني رسول الله ﷺ يعودني]** كرم من النبي ﷺ، هذه الجملة تدل على كرم خلقه وعظيم شمائله – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –، فقد كان أبر الناس بأصحابه، وأوفى الناس لأصحابه – رضي الله عنهم –، كان يحبهم، فيعود مرضاهم، ويشيع موتاهم، ويزور قبورهم، ويترحم عليهم – صلوات الله وسلامه عليه –، وهل كان إلا رحمة للعالمين! – صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إلى يوم الدين –. هذا المرض وقع في حجة الوداع، قال: **[في حجة الوداع]** وسميت هذه الحجة "حجة الوداع"؛ لأن رسول الله ﷺ ودع الناس فيها، فخطب في خطبتها يوم عرفة، وقال: (أيها الناس، اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا أبداً) فودع – عليه الصلاة والسلام – الأمة في هذه الحجة فسميت "حجة الوداع"، وكانت آخر حجة حجها – عليه الصلاة والسلام – وما حج غيرها في الإسلام. وقد اختلف العلماء – رحمهم الله –: هل كان مرض سعد رضي الله عنه في حجة الوداع أو في يوم الفتح؟ وجاءت رواية عند الترمذي في السنن: أنه يوم الفتح، والذي عليه المحققون: أن الحادثة وقعت في حجة الوداع، وأشار بعض الأئمة إلى أنه ربما مرض أكثر من مرة – رضي الله عنه وأرضاه –: فمرض في يوم الفتح، ومرض رضي الله عنه في

حجة الوداع. فقال سعد ﷺ: [**يا رسول الله، إن لي مال ولي ابنة**] "ولا وارث لي غيرها" كما في الرواية الأخرى. كان سعد ﷺ عنده المال الكثير، وكانت ابنته عائشة –كما بين بعض العلماء أن اسمها "عائشة" – وكانت أكبر ولده – رضي الله عنه وأرضاه –، فقال: [**وليس لي إلا ابنة، أفأوصي بثلثي مالي؟**] في هذه الجملة دليل على فضل هذا الصحابي – رضي الله عنه وأرضاه – وحرصه على عمارة، آخرته حيث إنه مع وجود الذرية انصرف همه للآخرة: أن يقدم من الصدقات والحسنات والباقيات الصالحات ما ينفعه بعد الممات، فقال: [**أفأوصي بثلثي مالي؟**] في الرواية الأخرى: "إني أورَث كلالة" والكلالة: من كل الرحم إذا انقطع. وهذا الذي جعل بعض العلماء يجمع بين الروايات: أنه مرض في المرة الأولى وليس له وارث، ومرض في المرة الثانية وله ابنة، وفي بعض الألفاظ: "ابن". قال: "أورَث كلالة" والكلالة: من كل الرحم إذا انقطع، فلا يكون له أصل ولا فرع، ومن هنا قالوا: الكلالة هي: انقطاع نسل الإنسان. قال الناظم:

يسألونك عن الكلالة هي انقطاع النسل لا محالة

لا والد يبقى ولا مولود انقطع الآبـــاء والجـــدود

فعرض على النبي ﷺ أن يوصي بثلثي المال –كان هذا محبة منه في الخير –، فقال ﷺ: [(**لا**)]. قوله: [**أفأوصي بثلثي مالي؟**] فيه دليل على مشروعية الوصية، ومشروعية الصدقة من بعد الموت، وقوله – عليه الصلاة والسلام –: [(**لا**)] فيه دليل على تحريم الوصية أكثر من الثلثين، إذا لم يرض الورثة ولم يجيزوها فإنها لاغية، وأما إذا أجازوها فإنها ماضية، والمراد بالتحريم: تحريم النفوذ، وأما في الأصل: فيجوز له أن يتصدق بالثلثين إذا أجاز الورثة ذلك.

قال – رضي الله عنه وأرضاه –: [**أفأوصي بشطر مالي؟ قال:** (**لا**) **قال: فالثلث؟**] قال – عليه الصلاة والسلام –: [(**الثلث، والثلث كثير**)] أي: هل أوصي بثلث مالي؟ فقال – عليه الصلاة والسلام –: [(**الثلث، والثلث كثير**)] فيه دليل على أنه يجوز للمسلم أن يوصي بثلث ماله صدقة بعد موته، وهذا الثلث يكون في البر والخيرات والأعمال الصالحات: كإطعام الطعام، وإغاثة

الملهوف، وقضاء الديون، وحفر الآبار، وبناء المساجد، وتفطير الصائمين، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة التي يبقى أجرها وثوابها لمن تصدق بها.

قال – عليه الصلاة والسلام –: [(**الثلث، والثلث كثير**)] أي: تصدق بثلث مالك ومع هذا فالثلث كثير، قال بعض العلماء – وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما –: الأفضل أن لا يوصي بالثلث، وذلك لأن رسول الله ﷺ قال: [(**الثلث، والثلث كثير**)] فاستكثر الثلث، ومن هنا استحبوا للمسلم أن لا يبلغ في وصيته الثلث، قال ابن عباس رضي الله عنهما – كما في الصحيحين وسيذكره المصنف –: "لو أن الناس غضوا عن الثلث؛ فإن رسول الله ﷺ قال: (الثلث، والثلث كثير)". قوله – عليه الصلاة والسلام –: [(**والثلث كثير**)] أخذ منه بعض العلماء دليلاً على أن الفرق بين القليل والكثير في شرع الله هو الثلث، وطردوا ذلك في مسائل، وممن قال بهذا القول: الإمام أبو عبدالله مالك بن أنس إمام دار الهجرة – رحمه الله برحمته الواسعة –، ففرق بين القليل والكثير في العبادات والمعاملات في الثلث، فمثلاً: في مسح الرأس قال – على إحدى الروايات عنه –: أنه إذا مسح ثلث رأسه أجزأه، وهكذا في المسح على الخفين: إذا كان الأخراق ومقطعاً لا يبلغ ذلك الثلث فإنه خفيف ويسير ويغتفر، وفي المساقاة: استتبع النخل لما كان أقل من الثلث، فأما إذا بلغ الثلث فعنده كثير، فيفرق في الأحكام بين القليل والكثير بالثلث؛ لأن النبي ﷺ قال: [(**الثلث، والثلث كثير**)]. منع النبي ﷺ المسلم أن يوصي بأكثير من الثلث، وذلك يدل على فضل إبقاء المال للورثة، وهذا ما عناه – عليه الصلاة والسلام – بقوله: [(**إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**)] فالمسلم إذا أوصى بأكثر من الثلث فإن هذا يضيق على ورثته وأولاده وذريته، وكون المال ينصرف إلى أقربائه وأولاده وذريته ينتفعون بهذا المال – خاصة إذا كانوا صالحين –: فإن هذا أعظم أجراً عند الله ﷻ للوالد، وأعظم فضلاً حيث إن الذرية لا تحتاج إلى الناس؛ فإن أشد الأمور وأعظمها بعد الكفر بالله: الحاجة إلى الناس، ومن هنا قالوا: إن النبي ﷺ منع سعداً ومنع المسلم أن يوصي فوق الثلث؛ حتى لا يضطر ورثته إلى الحاجة فيحتاجون إلى الناس، وقال – عليه الصلاة والسلام – معللاً هذا الحكم: [(**إنك أن تذر**)] يعني: تترك

[(ورثتك)] أي: من بعدك **[(أغنياء)]** من مالك ومن تركتك **[(خير لك من أن تذرهم عالة)]** يعني: فقراء **[(يتكففون الناس)]** أي: يسألون الناس ويحتاجون إليهم. وهذا فيه دليل – أيضاً – على أن الصدقة على القريب أفضل من الصدقة على الغريب، ومن هنا قال ﷺ: (ابدأ بنفسك وبمن تعول) فيبدأ الإنسان بأقرب الناس منه فيصرف صدقاته وبره إلى القريب. في هذه الجملة – أيضاً – دليل على أنه يجب على الوالد أن يراعي حال الورثة من بعده، وأن ينظر الوارث إلى ما يكونون إليه من بعده فيسد خلتهم وحاجتهم، حتى قال بعض العلماء: لو كانت الوصية بالربع تضر الورثة فإن الأفضل والأكمل أن لا يوصي، فإذا كان – مثلاً – المال يسيراً، مثلاً: ترك مئة ريال والورثة أحوج ما يكونون إلى هذه المئة، قالوا: مع هذا لا يوصي بشيء والأفضل أن يردها إلى الورثة؛ لأن النبي ﷺ قال: **[(إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)]**. وأشفق سعد رضي الله عنه على نفسه فاشتكى إلى رسول الله ﷺ أنه يخاف الموت، وخشي أن يخلف من بعد أصحابه، وقال: **[يا رسول الله، أخلف بعد أصحابي؟]** فقال – عليه الصلاة والسلام –: (اللهم اشف سعداً، اللهم اشف سعداً، اللهم اشف سعداً). وفي الرواية الأخرى: وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر سعد، قال سعد: "فما زلت أجد بردها حتى ساعتي هذه!". فشفي رضي الله عنه من ساعته! معجزة من معجزاته – عليه الصلاة والسلام –. وخاف سعد أن تقبض روحه بمكة، وهذا يدل على أن من هاجر من بلد وتركه لله عز وجل فإنه لا يرجع إليه إلا من ضرورة وحاجة، ومن هنا قال ﷺ في آخر الحديث: **[(اللهم امض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم خاسرين)]** فهذا يدل على أن بقاء الأجر وعظم الأجر: أن لا يقبض في الأرض التي هاجر منها، وثبت في الحديث الصحيح عنه – عليه الصلاة والسلام –: أنه رخص للمهاجرين أن يبقوا بمكة ثلاثة أيام، وهذا يدل على أن من هاجر من بلد فإنه لا يجلس فيها ولا يقيم؛ لأنه تركها لله، ومن ترك شيئاً لله فإنه لا يرجع عن تركه؛ لأن الله سيخلف عليه بخلفه ويعوضه فتمضي له هجرته.

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: [**(لعلك أن تعمر فينتفع بك أقوام ويُضر بك آخرون)**] معجزة من معجزات أبي القاسم ﷺ! حيث كشف الله له عن هذا الأمر الذي ما كان يعلمه لولا أن الله علمه، فأُخبر – عليه الصلاة والسلام – أن سعداً سيبقى بعد وفاته – عليه الصلاة والسلام – وسيُعمر، فينتفع به الإسلام ويستضر به أعداء الإسلام، وكان ما أخبر به – عليه الصلاة والسلام – وتحققت معجزته. وبين – عليه الصلاة والسلام – في هذا الحديث أنه ما خُلف إنسان فطال عمره فعمل عملاً يبتغي به وجه الله إلا رُفعت درجته وعظم أجره، ومن هنا كان استحباب الحياة أفضل وأكمل إذا كان لعمل صالح، ومن هنا قال معاذ لما حضرته الوفاة قال: "اللهم إنك تعلم أني ما كنت أحب الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر وقيام الأسحار". فهكذا كان حال الصفوة الأبرار: أنهم يحبون زيادة العمر لزيادة الأجر. وتوفي رجل وبقي أخوه من بعده أربعين يوماً – وكان كلا الرجلين صالحاً –، فلما توفي الأخ الثاني كان الأول أكثر صلاحاً، فاختصم الصحابة: أيهما أفضل؟ فدخل عليهم – عليه الصلاة والسلام – وهم يتناظرون ويختلفون، فقال – عليه الصلاة والسلام –: (وما يدريكم عن الذي بلغته صلاة أربعين يوماً؟!) أي: هذا الذي بقي أربعين يوماً من بعد أخيه – مع أن الأول أصلح – ما يدريكم كم يكون له من الأجر والثواب وعلو الدرجة؟! فطول العمر إذا كان لعمل صالح وخير وبر فإنها نعمة من الله، ولذلك ضرع الصالحون واشتكى المتقون إلى ربهم أن يزيد أعمارهم في طاعة الله – جل وعلا –، هذا ابن عمر – الصحابي الجليل – يقف على الصفا، فيقول: "اللهم إنك قلت – وقولك الحق –: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ اللهم إنك وعدت ولا تخلف الميعاد، اللهم كما وهبتني الإسلام فلا تنزعه مني أبداً حتى تتوفاني عليه، اللهم لا تقدمني لشر ولا تؤخرني لفتنة". فكان يقول: "اللهم لا تقدمني لشر" أي: لا تقبض روحي فتقدمني إلى نار وعذاب وسخط، ولا تؤخرني فيطول عمري إلى الفتن والمحن. ومن هنا كان طول عمر الإنسان في طاعة الله نعمة ورحمة من الله ﷻ، وأخبر ﷺ أن العبد ترفع درجته ويعظم أجره إذا زيد له في عمره، ومن هنا قال – عليه الصلاة والسلام –: (خيركم من طال عمره وحسن عمله) فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلنا ذلكم الرجل ممن طال عمره وحسن عمله.

وقوله: [**(إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله)**] هذا هو الأساس، هذا هو الأساس الذي عليه مدار الأقوال والأعمال قبولاً ورداً "إرادة وجه الله": أن القائل والمتكلم لا يتكلم إلا وهو يريد وجه الله، وأن العامل لا يعمل إلا وهو يريد وجه الله، وإرادة وجه الله والدار الآخرة لا يمكن أن يعطيها الله إلا للسعداء الأتقياء الصلحاء الذين أراد بهم الخير في الدنيا والآخرة، فليست هناك نعمة أعظم من نعمة الله على العبد بالإخلاص، وهذا هو أساس الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه، ومن أخلص لله طاب قوله وطاب عمله، وشكر الله سعيه وبارك قوله وعمله، قال بعض السلف: "كم من عمل قليل عظمته النية" وبالإخلاص يصير القليل كثيراً، وبالإخلاص تحسن عاقبة العبد في الدنيا والآخرة، وأشار الله ﷻ إلى ذلك بقوله: ﴿**هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ**﴾ فأخبر ﷻ أن أسعد عباده في الآخرة من صدق فأراد وجهه، تبتغي وجه الله، تطلب وجه الله، ولن ينجو عبد من الآخرة بشيء سوى الإخلاص ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا**﴾ لما أرادوا وجه الله. فأخبر ﷺ عن الأساس الذي هو قاعدة الفلاح والصلاح والربح والنجاح في الدنيا والآخرة: أن لا يتقدم العبد ولا يتأخر ولا يتكلم ولا يعمل إلا وهو يريد وجه الله، قال الإمام الحسن البصري – رحمه الله –: "لا يزال الرجل بخير: إذا قال قال لله وإذا عمل عمل لله".

يقول ﷺ: [**(حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك يكون لك بها أجر)**] هذا يدل على أن العادة تصير عبادة إذا كان الأساس النية الصالحة، فمن تزوج امرأة وفي نيته أنه يعفها عن الحرام، وفي نيته أن يعف نفسه عن الحرام، وفي نيته أن يبني بيتاً من بيوت الإسلام: كانت حياته الزوجية من بدايتها إلى نهايتها في ميزان حسناته، فلا يكون منه نفقة – قليلاً أو كثيراً – إلا آجره الله عليها [**(حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك)**] يعني: في فم زوجتك [**(يكون لك بها أجر)**] فسبحان الكريم العظيم الحليم الذي امتن على عباده بفضله وجوده وكرمه، والحمد لله على سعة رحمته ولطفه بخلقه. ومن هنا: تعظم أجور العباد بالنية الصالحة، فالعبد بهذه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ

يستنير في أقواله وأعماله ويوطن نفسه على إرادة وجه الله، وكل مسلم مطالب إذا أمسى وأصبح أن ينظر إلى شيء واحد، ما استقام هذا الشيء إلا استقامت أمور الدنيا والآخرة: أن ينظر في قلبه، أن ينظر في قرارة فؤاده: ما الذي فيه؟ هل يريد وجه الله أو يريد شيئاً سواه؟ فإن وجد أنه يريد وجه الله فليحمد الله من قرارة قلبه، فقد أعطاه الله ﷻ عطاءً ليس هناك أعظم من هذا العطاء، وهو: الإخلاص لوجه الله. فحري بالمسلم أن يتفكر وينظر إلى رسول الأمة ﷺ: كيف يربي أصحابه ويربي الأمة كلها على إرادة وجه الله ﷻ. نسأل الله العظيم رب العرش الكريم بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يجعلنا وإياكم من المخلصين، وأن يفتح علينا وعليكم فتوح العارفين.

قال – عليه الصلاة والسلام –: **[(لكن البائس سعد بن خولة). يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة]** هذا رجل من المهاجرين وهو من بني عامر بن لؤي، والذي اختاره بعض العلماء وبعض الأئمة: أنه غير ابن عفراء، لكن جاء في بعض الروايات: ابن عفراء، ومعوذ ومعاذ ابنا عفراء هما اللذان اشتركا في قتل أبي جهل عدو الله ورسوله، هذا العدو اللدود الذي قال بعض العلماء: إنه أشد من فرعون، ففرعون لما حضرته المنية قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا العدو – عليه لعائن الله تترى – لما حضرته المنية قال: احملوني ونادِ في القوم: "أنه – الشقي – مات على ملة الأجداد"! والعياذ بالله؛ لأن الله لا يمكن أن يجعل خاتمة حسنة لأعداء رسله – صلوات الله وسلامه عليهم –. كان عبدالرحمن بن عوف وعن يمينه ويساره معاذ ومعوذ ابنا عفراء، فحملا حملة كل منهما يقول: أين أبو جهل؟ امتلأت قلوبهم حنقاً وغيظاً على عدو الله وعدو رسول الله ﷺ، وهما صغار قد ربطت حمائل سيوفهم – من قصرهم وصغر أسنانهم – ربطت حمائل سيوفهم في أعناقهم – رضي الله عنهم –! ولكنه الدين والعقيدة والتوحيد الراسخ الذي إذا نزل في القلوب هد الجبال وكسر الطغام وبدد الظلم والظلام – رضي الله عنهم وأرضاهم –، فقال أحدهم: أيهم أبو جهل؟ ثم سأله الثاني حتى أثبتاه وعرفاه، ثم كان – عليه لعنة الله – لا يمر عليه أحد إلا فلقه والناس تهابه، فانقضا عليه – رضي الله عنهما وأرضاهما – كالأسد، وأثبتاه الاثنان بضربة – وكان

أحدهما أشد ضرباً من الآخر –، فسقط عدو الله إلى الأرض، ثم أجهز عليه ابن مسعود – رضي الله عنه وأرضاه – وانكسرت شوكته، وكان يوماً عظيماً أعز الله فيه جنده ونصر فيه عبده، وكانت بشارة عظيمة لرسول الله ﷺ، ثم ضربهما فأثبتهما. ولذلك لما دخل – عليه الصلاة والسلام – المدينة كان أول بيت دخله وأول امرأة عزاها عفراء – رضي الله عنها وأرضاها –، ما دخل بيتاً قبل بيتها، دخل عليها ليبشرها بذلك الفضل العظيم، دخل عليها لأن ابنيها سرا رسول الله ﷺ سروراً عظيماً، دخل عليها لكي يبشرها بتلك المنقبة العظيمة والمنزلة الشريفة الكريمة التي نالتها بسعيدين من السعداء الذين استشهدا في سبيل الله – نسأل الله العظيم من واسع فضله –، فهذه مكرمة عظيمة أكرم الله ﷻ بها أم هذين الرجلين.

وفي قوله: [(**لكن البائس سعد بن خولة**)] قيل: أنه أخ لهم، والذي صححه العلماء: أنه غيره، وهذا الرجل توفي بمكة ورثى له رسول الله ﷺ؛ لأنه كان مهاجراً من مكة، ومن هاجر من بلد وقبضت روحه فيها فإن هذا يكون أقل أجراً وأقل ثواباً ممن هاجر فقبضت روحه في غير البلد الذي هاجر فيه.

في هذا الحديث الشريف دليل على سمو منهج هذه الشريعة الإسلامية وعظم شأنها، حيث راعت حقوق الناس – خاصة من الأقربين –، فالعبد ربما تملك الدين قلبه فالتفت إلى نفسه ونسي قرابته، فذكر رسول الأمة ﷺ المسلم بحقوق ورثته من بعده، وهذا يدلنا على أنه حري بكل مسلم أن ينظر إلى ورثته من بعده خاصة في مسائل الوصايا والأموال، وأنه ربما كان الأموال الآن في نظرك كثيراً، ولكن ربما يموت الإنسان في يوم يكون المال الذي يراه كثيراً إذا به قليل، فلفت النبي ﷺ أنظار أمته إلى ما ينبغي مراعاته من الشفقة والرحمة والإحسان للورثة [...].